السُنّةَ المحَمّدَيّة

عوامل ديمومتها
وأسس صيانتها

بحث كتبه/ د. عبدالمهدي بن عبدالقادر بن عبدالهادي

الأستاذ المساعد بقسم الحديث بالكلية.

بسم الله الرحمن الرحيم

السـنة المحمديـة
عوامل ديمومتهـا
وأسس صيانتهـا

اذا توافر فى الشئ عوامل البقاء الذاتية واسس صيانته من العوامل الخارجية فله أعلى درجات البقاء اللائق به، وهذا شأن السنة فلقد حظيت بخصائص فى ذاتها تورثها البقاء ووضع أهلها لها من الأسس مايجعلها حصينة ضد الضياع أو النقصان وضد التغيير والتبديل، حتى ليستطيع الباحث ان يقسم عوامل بقاء السنة وسلامتها الى قسمين:ـ

أ ـ عوامل فى نفس السـنة .

ب ـ عوامل فى حملة السـنة.

أ) أما العوامل التى فى نفس السنة فتتمثل فى (١) هدى النبى صلى الله عليه وسلم فى تبليغ السنة (٢) ما انعم الله به على نبيه صلى الله عليه وسلم اذ آتاه جوامع الكلم وأعلى درجات الفصاحة والبلاغة .

(٣) سمو تعاليم السنة . وهاك التفصيل والله المستعان.

أولا : هدى النبى صلى الله عليه وسلم فى تبليغ السنة:ـ

١ ـ فلقد كان صلى الله عليه وسلم لا يحدث أصحابه الا اذا كانوا فى حالة يكون سماعهم لحديثه سماعا تاما.

---

(١) فتح البارى بشرح صحيح البخارى طبعة السلفية .

اخرج البخارى فى صحيحه (٢١٧/١)(١) عن جرير بن عبد الله إن النبى صلى الله عليه وسلم قال له فى حجة الوداع: استنصت الناس... الخ الحديث وفى هذا دليل على أنه صلى الله عليه وسلم لا يحدثهم الا اذا كانوا فى حالة انصات واصغاء وما كان الصحابة بأهل ضوضاء أو فوضى وانما حدث ذلك من كثرة الزحام ولم يعلموا أنه صلى الله عليه وسلم سيحدثهم فلما أراد صلى الله عليه وسلم حديثهم أمر جريرا أن يطلب منهم الانصات.

ودليلنا على أن الصحابة كانوا اهل سكينة وهدوء لاضجيج وفوضى ماروى عن اسامة بن شريك قال: اتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا اصحابه عنده كأن على رؤوسهم الطير (الالماع ص ٤٨ ، ٤٩).

٢ ـ وكان لايحدثهم الا فى حالة شوق للسماع اذ ذاك أكد لرسوخ المسموع وضمان من الملل والسآمة

أخرج البخارى (١٦٢/١) عن ابن مسعود قال: كان النبى صلى الله عليه وسلم يتخولنا بالموعظة فى الأيام كراهة السآمة علينا.

٣ ـ وكان يعيد الكلمة ثلاثا حتى تفهم وتعقل عنه فكم من أمور يحتاج الذهن ان تكرر له حتى يستوعبها فكان صلى الله عليه وسلم كذلك حرصا على فهم اصحابه كل مايحدثهم به .

اخرج البخارى (١٨٨/١) عن انس عن النبى صلى الله عليه وسلم انه كان اذا تكلم بكلمة اعادها ثلاثا حتى تفهم عنه ... الخ الحديث .

٤ ـ وكان اذا تحدث يتحدث بترو لا يدخل الكلام بعضه فى بعض ولايسرده سردا. وهذا ادعى لسلامة المسموع وحفظ من أراد وفهم المستفيد.

اخرج أبوداود عن عائشة رضى الله عنها قالت : «كان كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم كلاما فصلا يفهمه كل من سمعه ومعنى «فصلا» واضحا ظاهرا.

٥ ـ وكان يضرب لهم الأمثال لزيادة الإفهام ويصور المعانى لترسخ فى الاذهان كما ورد فى سؤاله لهم عن شجرة تشبه المسلم ففكروا ثم أجابهم وبدهى ان الاجابة بعد تفكير وانتظار ترسخ وتثبت فى الاذهان.

اخرج البخارى (١٤٥/١) عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى

الله عليه وسلم: «ان من الشجر شجرة لايسقط ورقها وانها مثل المسلم فحدثونى ماهى؟ فوقع الناس فى شجر البوادى قال عبدالله ووقع فى نفسى أنها النخلة فاستحييت ثم قالوا حدثنا ماهى يارسول الله قال: هى النخلة.

ثانيا: ما أنعم الله به على نبيه صلى الله عليه وسلم:

فلقد اصطفى الله نبيه أجمل الخلق بيانا وفصاحة وبلاغة وادبا شهد بذلك اصحابه عامة ومنصفى اعدائه .

وسنته صلى الله عليه وسلم بين أيدينا شاهدة بذلك فهى فى أعلى درجات البلاغة والفصاحة وفوق هذا آتاه الله جوامع الكلم فقد تحتاج الكلمة فى شرحها الى صفحات فأى تعبير أشمل من قوله صلى الله عليه وسلم «إن الدين النصيحة»(٢) حتى قال الخطابى: ليس فى الكلام كلمة مفردة تستوفى بها العبارة عن معنى هذه الكلمة.

أخرج مسلم فى صحيحه (١٥٦/٢)(٣) عن ابى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: فضلت على الأنبياء بست: اعطيت جوامع الكلم ونصرت بالرعب واحلت لى الغنائم وجعلت لى الأرض طهورا ومسجدا وأرسلت الى الخلق كافة وختم بى النبيون».

ولسوف تدرك قيمة هذا العامل ومدى جذبه للعرب اذا تذكرت ماتعرفه عن بلاغة القوم وفصاحتهم وتباريهم وتباهيهم بذلك وحبهم للبيان والفصاحة .

كما تدرك قيمته اذا علمت انه صلى الله عليه وسلم يعبر عن المعانى الكثيرة بالفاظ قليلة وتعبيرات وجيزة وهذا ايسر للحفظ واسهل للاستيعاب واحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم بين يديك تجد السمة الغالبة عليها عدم تجاوز عدد اصابع اليد من

(٢) أخرجه مسلم وأبو داود وأحمد والنسائى عن تميم الدارى

(٣) صحيح مسلم بشرح النووى طبعة الشعب .

الاسطر بل كثير منها لا يتجاوز السطرين .

يقول ابن قيم الجوزية (زاد المعاد ٦٣/١)
«كان صلى الله عليه وسلم افصح خلق الله واعذبهم كلاما واسرعهم اداء واحلاهم منطقا حتى ان كلامه يأخذ بالقلوب ويسبي الارواح ويشهد له بذلك اعداؤه وكان اذا تكلم تكلم بكلام مفصل مبين يعده العاد ليس بهذر مسرع لايحفظ ولا منقطع تخلله السكتات بين افراد الكلام».

ثالثا سمو تعاليم السنة :

فلقد وجدت الأمة في السنة النبوية نظاما يفوق كل نظام واسلوب حياة يسمو على كل الانظمة وماذا بعد «لاضرر ولا ضرار»(٤) وماذا بعد «ليس منا من لم يجل كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه»(٥) لقد أخذت السنة على الصحابه شغاف قلوبهم اذ نقلتهم من حال إلى حال من مبدأ أكل القوى الضعيف إلى «والله فى عون العبد ماكان العبد فى عون أخيه»(٦) من عالم التفاخر بالاباء والاجداد الى عالم «كلكم بنو آدم وآدم خلق من تراب»(٧) نقلتهم الى حياة يسودها السمو الخلقى الذى يسمو على كل رأى وتفكير مهما كان ويوافق الفطر بل وتسعد به فى كل زمان ومكان مما جعلهم فى اعلى درجات الحب للسنة، ينفذون كل تعاليمها ويحرصون على معرفة كل نصوصها مما كان سببا فى الحفاظ على السنة فان تحويلها إلى واقع عملى جعلها فى أعلى درجات الحفظ وحبهم لها جعلها فى أعلى درجات تطلاب اهلها لها وسيأتى مزيد بيان لذلك ـ ان شاء الله تعالى ـ فى الحديث عن الصحابة وحبهم لدينهم .

---

(٤) أخرجه الامام أحمد فى مسنده وأخرجه أيضا ابن ماجه كلاهما عن ابن عباس .
(٥) اخرجه الامام أحمد فى مسنده والحاكم فى المستدرك عن عبادة بن الصامت
(٦) أخرجه مسلم وأبو داود والترمذى وأحمد عن أبى هريرة .
(٧) أخرجه البزار عن حذيفة وله شواهد راجع الدر المنثور ج ٦ ص ٩٨، ٩٩

وماكان مَنْ بعد الصحابة بأقل منهم. فلقد ضربوا المثل الاعلى فى الحرص على السنة حتى دُونت فى بطون الكتب وصينت من كل زيف ، ومازالت تعاليمها السامية تدعونا بل تجذبنا اليها .

ولو أن اهل العصر علموا مافى السنة من كنوز ومافيها من سمو ورفعة لحرصوا عليها ولصانوها بالنفس والنفيس، بيد أن انصرافهم عنها لم يؤثر فى الحفاظ عليها فلقد دونت فى القرون الفاضلة ـ التى قال فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم «خير الناس قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم.. الحديث»(٨).

ولقد بلغ من سمو السنة ان جذبت أنظار أعداء الاسلام فراحوا يراقبونها وماجاءت به فهاهو مشرك ينطق بشمول السنة لكل أمور الحياة معترفا على نفسه ومن على شاكلته بأنهم يحرصون على معرفة تعاليم السنة .

اخرج الإمام مسلم فى صحيحه (٥٤٦/١) عن سلمان قال: قيل له قد علمكم نبيكم صلى الله عليه وسلم كل شئ حتى الخراءة؟ قال : قال: اجل لقد نهانا ان نستقبل القبلة لغائط أو بول أو ان نستنجى باليمين أو نستنجى باقل من ثلاثة احجار او ان نستنجى برجيع أو بعظم» . انظر إلى قول السائل «لقد علمكم نبيكم كل شيء» تجد انها تدل على تتبع هؤلاء لامور السنة واعترافهم ـ مع اهلها ـ بشمولها لكل أمور الحياة .

ب) اما العوامل التى فى حملة السنة فتشمل :

١ ـ ماكان عليه الصحابة من عدالة وسعة حفظ وحب لدينهم .

٢ ـ شرعية الاسناد والاهتمام به اهتماما منقطع النظير. وهناك تفصيل ذاك الاجمال.

أولا : الصحابة :

---

(٨) أخرجه البخارى ومسلم وأحمد والترمذى عن ابن مسعود وله شواهد .

الصحابى : هو من لقى النبى صلى الله عليه وسلم مؤمنا به ومات على الإسلام.

فكل من لقى النبى صلى الله عليه وسلم ولو لحظة حال كونه مؤمنا ومات على الإسلام فهو صحابى سواء لقيه وهو صغير أو كبير وسواء روى عنه ام لم يرو عنه .

قال البخارى : ومن صحب النبى صلى الله عليه وسلم وراه من المسلمين فهو من اصحابه «كفاية ص ٩٩».

هذا هو المشهور بين أهل الحديث فانهم لشرف منزلة النبى صلى الله عليه وسلم أعطوا كل من رآه حكم الصحبة اذ رؤيته صلى الله عليه وسلم شرف مابعده شرف وفى تعريف الصحابى اقوال (راجع فتح المغيث شرح الفيه الحديث للعراقى ٢٩/٤).

وعدد الصحابة فوق المائة الف فلقد قال ابو زرعة الرازى: توفى النبى صلى الله عليه وسلم ومن رآه وسمع منه زيادة على مائة الف انسان من رجل وامرآة كلهم قد روى عنه سماعا او رؤية قال ابن فتحون ـ بعد أن ذكر ذلك ـ اجاب ابو زرعة بهذا السؤال من سأله عن الرواه خاصة فكيف بغيرهم؟ (الاصابة تحقيق البجاوى ٣/١).

وروى عنه ـ ابى زرعة الرازى ـ انه قال: قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مائة الف واربعة عشر الفا من الصحابة ممن روى عنه وسمع منه «فتح المغيث للعراقى ٣٩/٤).

وهذه الكثرة الكثيرة بما جبلوا عليه من قوة حفظ وتوقد قريحة وماحباهم الله به من حب لدينهم وثقة فى نقل اخبارهم كانوا ايما عامل من عوامل حفظ السنة .

فعدالتهم جميعا ادت إلى كثرة حملة السنة والى اطمئنان التابعين وخفة مؤته تحمل السنة اذ المدرسة التى تخرجوا فيها ـ بفضل عدالة الصحابة ـ واسعة موثوق بها ولولا عدالة كل الصحابة لكان على التابعين ان يفحصوا ويدققوا ولقل عدد من يروون عنه. وكل ذلك بفضل الله لم يكن.

وسعة حفظهم ادت إلى كثرة حفاظ السنة والمحافظين على نصوصها ولذلك دوره فى

تيسير الأمر على التابعين وفى حفظ السنة .

وحبهم لدينهم كان هو سر ايتاء العاملين السابقين ثمارها اذ لو كانوا عدولا حفاظا لكنهم غير مهتمين بالسنة ماحفظوا ولا حافظوا لكنهم لما كانوا محبين حريصين عليها ادى ذلك إلى الحفظ والحفاظ خاصة انهم عدول اثبات وهناك تفصيل القول .

١ ـ عدالة الصحابة :

اختار الله سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم صحابة اجلاء فى اعلا درجات الطهارة والنقاء ـ كما أخبر سبحانه وتعالى عن ذلك واخبر نبيه صلى الله عليه وسلم ـ وذلك كى يحملوا هذا الدين من اشرف مخلوق الى خلفهم فيكونوا عليه امناء حريصين بعد أن يكونوا له متبعين .

ولقد بين سبحانه أوصافهم هذه فى غير ماموضع من الكتاب وتعديله سبحانه فوق كل تعديل فهو للظاهر والباطن للعلن والسر .

يقول سبحانه «محمد رسول الله والذين معه اشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا...الآية»(٩) ويقول «والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه... الآية»(١٠)

ويقول «للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله اولئك هم

---

(٩) سورة الفتح آية ٢٩ .

(١٠) سورة التوبة آية ١٠٠ .

الصادقون والذين تبوؤوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا و يؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون»(١١) ويقول «والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا اولئك هم المؤمنون حقا لهم مغفرة ورزق كريم.»(١٢)

وقال صلى الله عليه وسلم «لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ماأدرك مد احدهم ولا نصيفه»(١٣) وقال: الله الله في اصحابي لا تتخذوهم غرضا فمن أحبهم فبحبي احبهم ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم ومن آذاهم فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله ومن آذى الله فيوشك ان يأخذه»(١٤) وقال: خير الناس قرني ثم الذين يلونهم... الحديث»(١٥).

يقول الخطيب (في الكفاية ص ٩٦) : على أنه لو لم يرد من الله عز وجل ورسوله فيهم شئ مما ذكرناه لاوجبت الحال التي كانوا عليها من الهجرة والجهاد والنصرة وبذل المهج والاموال وقتل الاباء والاولاد والمناصحة في الدين وقوة الايمان واليقين القطع على عدالتهم والاعتقاد لنزاهتهم وانهم افضل من جميع المعدلين والمزكين الذين يجيئون من بعدهم أبد الأبدين.

وهذا مذهب أهل السنة والجماعة فهم مجمعون على ان الصحابة كلهم عدول كيف لا؟ وقد عدلهم الله ورسوله واحوالهم تحكم بعدالتهم .

---

(١١) سورة الحشر آية ٨ ، ٩ .

(١٢) سورة الأنفال آية ٧٤ .

(١٣) أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وأحمد عن أبي سعيد .

(١٤) أخرجه الترمذي وابن حبان من حديث عبدالله بن مغفل .

(١٥) تقدم تخريجه .

قال ابو زرعة الرازى (الكفاية ص ٩٧ والاصابة ص ١١ ج ١) «اذا رأيت الرجل ينتقص احدا من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعلم انه زنديق، وذلك ان الرسول صلى الله عليه وسلم حق والقرآن حق وانما ادى الينا هذا القرآن والسنن اصحاب رسول الله عليه السلام وهؤلاء يريدون ان يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنة والجرح بهم اولى وهم زنادقة .

٢ ـ قوة ذاكرتهم :

خصصت العرب بالحفظ فكانوا يعتمدون على صدورهم فى حفظ انسابهم ومفاخرهم واشعارهم وكل مالهم فها هو ابن عباس(١٦) يحفظ فى سمعة واحدة قصيدة عمر بن ابى ربيعة .

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر .. غداة غد ام رائح فمهجر

وها هو قتادة يقول(١٧) ماسمعت اذناى شيئا قط الا وعاه قلبى .

وها هو ابن شهاب الزهرى يقول(١٨) انى لأمر بالبقيع فأسد آذانى مخافة أن يدخل فيها شيء من الخنا فوالله مادخل اذنى شيء قط فنسيته».

ولقد أنتفع الصحابة بهذه الملكة ـ ملكة الحفظ ـ فى خدمة الكتاب والسنة فكانت عاملا من عوامل الحفاظ على السنة اذ سجلوها فى صدورهم وتناقلوها فيما بينهم .

واختص حفظ الصحابة بالاقتران بالفهم الثاقب والاستنباط من النص بل من النصوص ولو كانت غير متعاقبة فها هو على بن ابى طالب كرم الله وجهه يستنبط من قوله تعالى «والوالدات يرضعن اولادهن حولين كاملين(١٩) وقوله «وحمله

---

(١٦) جامع بيان العلم ٨٣/١ .

(١٧) علل الحديث للترمذى فى آخر جامعه ٤٩٣/١٠ تحفة، والالماع ص ٢٢٠ .

(١٨) جامع بيان العلم ٨٣/١ .

(١٩) سورة البقرة آية ٢٣٣ .

وفصاله ثلاثون شهرا(٢٠)» رغم عدم تعاقب النصين ـ يستنبط ان مدة الحمل قد تكون ستة اشهر .

عن ابى الأسود الديلى (الدؤلى) ان عمر بن الخطاب رفعت إليه إمرأة ولدت لستة اشهر فهم برجمها فبلغ ذلك عليا فقال ليس عليها رجم قال الله تعالى «**والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين**» وستة أشهر فذلك ثلاثون شهرا ـ قلت-عنى الاية «**وحمله وفصاله ثلاثون شهرا**» وستة اشهر فذلك ثلاثون شهرا. وهى مذكورة فى رواية البيهقى. وأثبت الواقع صدق استنباط على هذا فولدت المرأة المرة الثانية لستة أشهر ايضا. وورد هذا الاستنباط عن ابن عباس ايضا .

عن فايد بن عباس قال: اتى عثمان بامرأة ولدت فى ستة أشهر فأمر برجمها فقال ابن عباس انها إن تخاصمك بكتاب الله تخصمك يقول الله «**والوالدات يرضعن اولادهن حولين كاملين**» ويقول الله فى آية أخرى «**وحمله وفصاله ثلاثون شهرا**» فقد حملته ستة اشهر فهى ترضعه لكم حولين كاملين فدعابها عثمان فخلى سبيلها. (راجع الدر المنشور ٢٨٨/١ والسنن الكبرى للبيهقى ٤٤٢/٧ وتفسير الطبرى ٤٩١/٢) وكتب الفقه الإسلامى تشرق نورا باستنباط واجتهادات الصحابة فى فهم النص كما تضئ بذلك، الكتب التى أهتمت بالآثار كمصنف عبدالرزاق ومصنف ابن ابى شيبة وسنن البيهقى.

٣ ـ حبهم لدينهم وحرصهم عليه :

بلغ حب الصحابة لدينهم وحرصهم عليه درجة استهانوا معها بالنفس والنفيس ازاء نصرة هذا الدين والحفاظ عليه. فزادوا عن حياضه بالمال والولد وبالنفس حتى كان الابن والاب يتنازعان فيمن يخرج الى الحرب ومن يبقى فى الأهل فكان الوالد يحرص على ان

---

(٢٠) سورة الأحقاف آية ١٥ .

يكون هو الذاهب الى ساحة الوغى وماكان الابن بأقل منه شأنا وماقصة جابر مع أبيه عن ذهنك ببعيدة اذ يتسابق كل فى الذهاب الى المعركة ويستغل الأب ابوته وكبر سنه مبررا لذهابه هو خشية ان يموت على فراشه غير شهيد. فاذا علمت ذلك ـ فداءهم لدينهم بأنفسهم ـ ادركت درجة حرصهم على حفظ نصوص هذا الدين والتى بلغت درجة التفرغ الكامل لحفظ مايقوله رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذه نماذج من حرصهم على تعلم امور دينهم .

أخرج البخارى (١/١٨٥) عن عمر قال: كنت انا وجار لى من الأنصار فى بنى أمية بن زيد ـ وهى من عوالى المدينة ـ وكنا نتناوب النزول على رسول الله صلى الله عليه وسلم ينزل يوما وأنزل يوما جئته بخبر ذلك اليوم من الوحى وغيره. واذا نزل فعل مثل ذلك ... الحديث .

واخرج البخارى ايضا (١/١٩٣) عن ابى هريرة رضى الله عنه قال: قلت يارسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لقد ظننت ياابا هريرة ان لا يسألنى عن هذا الحديث أحد أول منك لما رأيت من حرصك على الحديث..... الحديث» فها هو الرسول صلى الله عليه وسلم يعلم أنه سوف يسأله اصحابه عن هذا الامر ـ الشفاعة ـ نظرا لحرصهم على التعلم ويرجح عنده ان يسبقهم أبو هريرة بهذا السؤال وتأمل قوله صلى الله عليه وسلم «أحد اول منك» اى أن كثيرا عنده هذا السؤال بيد أنك ستتقدمهم وهذا مدح للصحابة عامة ولابى هريرة خاصة. ولا تظن ان هذا مدح لابى هريرة وفقط لا فانه لم يقل «ان لايسألنى احد غيرك» وانما قال «اول منك» ففى ذلك اثبات لزيادة حرصه مع اثبات الحرص لكل الصحابة رضى الله عنهم اجمعين .

وعقد الدرامى فى سننه ١/١١١ «باب البلاغ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعليم السنن» اورد فيه مما يثبت المعنى الذى نحن فيه كثيرا فأخرج عن ابى ذر قال: أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لايغلبونا على ثلاث: ان نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ونعلم الناس السنن.

وعن ابى ذر ايضا «لو وضعتم الصمصامة ـ بمهملتين الاولى مفتوحة هو السيف الصارم الذى لاينثنى وقيل الذى له حد واحد ـ على هذه واشار الى قفاه ثم ظننت انى أنفذ كلمة سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ان تجيزوا على لأنفذتها» راجع فتح البارى ١٦١/١ فى موقف ابى ذر هذا ففيه كبير بيان.

وبالجملة ففى سنن الدارمى فى هذا الموضع خير كثير فراجعه .

هذا ولم تكن هذه الحال مقصورة على الرجال فحسب وانما شاركهم بل سابقهم فيها النساء حتى وصل الامر ان شكون لرسول الله صلى الله عليه وسلم قلة الفرصة لهن فى التعليم راجين إتاحتها.

اخرج البخارى (١٩٥/١) عن ابى سعيد الخدرى: قالت النساء للنبي صلى الله عليه وسلم غلبنا عليك الرجال فاجعل لنا يوما من نفسك فوعدهن يوما لقيهن فيه فوعظهن وامرهن الحديث.

ولذا قالت عائشة فيما أخرجه مسلم (٦٢٩/١) «نعم النساء نساء الانصار لم يمنعهن الحياء ان يتفقهن فى الدين».

كما أنه لم تكن الحال هذه قصرا على الموجودين مع الرسول صلى الله عليه وسلم فى المدينة بل ان أهالى الاماكن البعيدة عن المدينة شاركوا المدنيين فى شرف الحرص على معرفة وتبليغ السنة. فكانوا يرسلون رسلهم الى الرسول صلى الله عليه وسلم لينقلوا لهم عنه مانزل من شرع السماء. وامتثالا لروح الاسلام كان الوفد يبلغ ماعلمه الى كل من يمر عليهم .

اخرج ابن الجعد (حديث رقم ٦٥٢) عن عمرو بن سلمة قال: كان زمن الفتح يمرون بنا فنقرأ ويقرءون فنأخذ منهم العلم فذهب ابى باسلام قومه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يؤمكم اقرؤكم لكتاب الله فقدمونى بين ايديهم... الحديث .

واخرج ابو داود (٢٩٣/٢) عن عمرو بن سلمة قال: كنا بحاضر يمر بنا الناس اذا اتوا النبى صلى الله عليه وسلم فكانوا اذا رجعوا مروا بنا فأخبرونا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كذا وكذا وكنت غلاما حافظا فحفظت من ذلك قرآنا كثيرا فانطلق ابى وافدا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم.. الحديث ومن هنا نعلم ان الوفود بلغت وان من سمع حفظ وهكذا كان القوم .

ويظهر للمتأمل أن هذه الوفود كانت فى منتهى النضج الفكرى فكانت تسأل الأسئلة بتركيز ويجيب صلى الله عليه وسلم عليهم بما يشفى غليلهم ويوضح لهم روح دينهم.

انظر الى وفد عبدالقيس اذ يقول (كما فى صحيح مسلم ١٥٨/١) «يارسول الله إنا نأتيك من شقة بعيدة وان بيننا وبينك هذا الحى من كفار مضر وانا لانستطيع ان نأتيك الا فى شهر الحرام فمرنا بأمر فصل نخبر به من وراءنا ندخل به الجنة... الحديث.

تجد انهم لم يحضروا ليسمعوا ماصادفوه وانما «مرنا بأمر فصل نخبر به من وراءنا ندخل به الجنة» فطلبوا التعاليم عامة شاملة تورث الجنة .

واخبار الوفود كثيرة ذكر ابن سعد فى كتابه «الطبقات الكبرى» تحت عنوان (ذكر وفادات العرب على رسول الله صلى الله عليه وسلم) كثيرا منها وعدد من الوفود نحو سبعين وفدا (راجع الجزء الاول من ص ٢٩١ الى ص ٣٥٩).

وكان الرجل يجيء بنفسه ليسأل عن امور دينه ولربما قطع فى سبيل ذلك طويل المسافات وتحمل شديد مشاق السفر كما فى حديث طلحة ابن عبيد الله الذى أخرجه مسلم (١٤١/١) قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل نجد ثائر الرأس نسمع دوى صوته ولا نفقه مايقول حتى دنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا هو يسأل عن الاسلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: خمس صلوات فى اليوم والليلة .. الحديث.

وكما فى حديث عقبة بن الحارث انه تزوج ابنة لابى اهاب بن عزيز فأتته امرأة فقال انى قد ارضعت عقبة والتى تزوج فقال لها عقبة: ماعلمت انك ارضعتنى ولا اخبرتنى فركب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة فسأله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وكيف وقد مل ففارقها عقبة ونكحت زوجا غيره «وعقبة هذا كان من أهل مكة فارتحل الى المدينة من أجل أن يسأل (بخارى ١/١٨٤).

وبعد ان انتقل الرسول صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الأعلى زاد حرص الصحابة على السنة وتفانوا فى خدمتها وتسابقوا فى طلبها وجمعها وفهمها وتطبيقها مفضلين السماع من سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم مباشرة حريصين على اللفظ النبوى وعلى تناقله كما قاله صلى الله عليه وسلم جهد الطاقة .

اخرج الخطيب (فى الكفاية ص ٢٧١) بسنده عن سعد بن عبيدة السلمى عن ابن عمر قال: بنى الاسلام على خمس على ان تعبد الله وتكفر بما دونه واقام الصلاة وايتاء الزكاه وحج البيت وصيام رمضان فقال رجل تعبد الله وتكفر بما دونه واقام الصلاة وايتاء الزكاة وصيام رمضان قال: لا اجعل صيام رمضان آخرهن كما سمعت من فى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

واخرج ابن عبدالبر (جامع بيان العلم ١/١١٢) بسنده عن ابن عباس قال: كان يبلغنا الحديث عن رجل من اصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فلو اشأ ان ارسل اليه حتى يجيئنى فيحدثنى فعلت ولكنى كنت اذهب اليه فأقيل على بابه حتى يخرج الى فيحدثنى .

وأخرج ايضا ـ نفس الكتاب والصفحة ـ عن ابى سعيد الأعمى أن أبا ايوب رحل الى عقبة بن عامر فلما قدم مصر اخبروا عقبة فخرج اليه قال حدثنا ماسمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ستر المسلم لم يبق أحد سمعه غيرى وغيرك قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «من ستر مسلما على خزية ستره الله يوم القيامة»

فاتى أبو أيوب راحلته فركبها وانصرف الى المدينة وماحل رحله. وهو فى مسند احمد ١٥٣/٤، ١٥٩.

واخرج ايضا (ص ١١١) عن جابر بن عبدالله قال: بلغنى حديث عن رجل من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأبتعت بعيرا فشددت عليه رحلى ثم سرت اليه شهرا حتى قدمت الشام فاذا عبدالله ابن انيس الانصارى فأتيت منزله وارسلت اليه إن جابرا على الباب فرجع الى الرسول فقال: جابر ابن عبدالله؟ فقلت نعم فخرج الى فاعتنقته واعتنقنى قال: قلت حديث بلغنى عنك انك سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المظالم لم اسمعه انا منه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقال «يحشر الله تبارك وتعالى العباد او قال الناس ـ شك همام وأومأ بيده الى الشام ـ حفاه عراة غرلا بها قال: قلنا مابهما؟ قال: ليس معهم شئ فيناديهم بصوت يسمعه من بعد ويسمعه من قرب : انا الملك الديان لاينبغي لأحد من اهل الجنة ان يدخل الجنة وأحد من اهل النار يطلبه بمظلمة حتى اللطمة ولاينبغي لأحد من اهل النار أن يدخل النار واحد من أهل الجنة يطلبه بمظلمة حتى اللطمة قال قلنا له كيف وانما نأتي الله عز وجل حفاه عراه غرلا قال بالحسنات والسيئات.

وذكر ابن عبدالبر فى باب ذكر الرحلة فى طلب العلم من كتابه «جامع بيان العلم ص ١١١ كثيرا من الأخبار الدالة على تحمل الصحابة والتابعين بل استهانتهم فى سبيل خدمة السنة بكل شدة ومشقة حتى سافر احدهم من اجل حرف ولم يكتف احدهم بسماع الحديث من غير النبى صلى الله عليه وسلم بل سافر اليه ليسمع منه مباشرة مهما كانت مشاق السفر، وبعده صلى الله عليه وسلم سافر بعضهم من أجل حديث المفاوز بل سافر من أجل ان يسمع حديثا سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يتثبت

وهكذا كان حب الصحابة لدينهم وحرصهم عليه بلغ فوق المعقول فنالوا به المأمول جزاهم الله خير الجزاء .

ثانيا : شرعية الاسناد :

حث الرسول صلى الله عليه وسلم الامة على أن يأخذ كل منها العلم عمن فوقه ويبلغه الى من دونه اذ فى ذلك بقاء العلم واظهاره ومعرفة احكام الدين واظهاره .

يقول صلى الله عليه وسلم «تَسمعون ويُسمع منكم ويسُمع ممن يَسمع منكم»((٢١).

ويقول : بلغوا عنى ولو آية .... الحديث.(٢٢)

ويقول «نضر الله امرءا أسمع منا حديثا فحفظه حتى يبلغه عنا كما سمعه فرب حامل فقه غير فقيه»(٢٣) وفى رواية «ورب حامل فقه الى من هو افقه منه» وفى رواية «فرب مبلغ اوعى له من سامع».

وقال فى حجة الوداع(٢٤) «ليبلغ الشاهد الغائب فان الشاهد عسى أن يبلغ من هو اوعى له منه».

وقال لوفد عبدالقيس ـ كما تقدم ـ احفظوه واخبروا به من وراءكم.

وهو صلى الله عليه وسلم اذا كان قد حث الأمة على السماع والاسماع اللذين هما حصن امان للسنة من ان يضيع منها حرف فانه ايضا وضع لها الحصن الذى يحفظها من ان يزاد فيها حرف فحذر من الكذب عليه ومن رواية المكذوب وعن الكاذب مبينا ان هذا النوع من الكذب ليس كأى كذب وانما هو كذب فى دين الله اثمه اعظم والعقوبة عليه أشد .

أخرج الامام مسلم (١/٥١ ـ ٥٩) عن سمرة بن جندب وعن المغيرة بن شعبة قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من حدث عنى بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين» روى بفتح الباء الموحدة وبكسرها. وعن على رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لاتكذبوا على فانه من يكذب على يلج النار» وعن انس انه

---

(٢١) أخرجه ابن حبان وأبو داود وأحمد عن ابن عباس .

(٢٢) أخرجه البخارى والترمذى وأحمد عن عبدالله بن عمرو .

(٢٣) أخرجه ابن حبان والترمذى وأبو داود وأحمد عن زيد بن ثابت .

(٢٤) أخرجه البخارى ومسلم وأحمد عن أبى بكرة نفيع بن الحارث بن كلدة .

قال: أنه ليمنعنى ان احدثكم حديثا كثيرا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من تعمد على كذبا فليتبوأ مقعده من النار ـ وعن ابى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار» وعن المغيرة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ان كذبا على ليس ككذب على احد فمن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار».

وبين القرآن أن الخبر المقبول انما هو خبر العدل اما خبر الفاسق فلا، قال سبحانه «يا ايها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا...الاية»(٢٥) وقال: «وأشهدوا ذوى عدل منكم» (٢٦) فدلت الآية الأولى على وجوب التبين والكشف عن خبر الفاسق ودلت الثانية على الاعتماد على خبر العدل وهى وان كانت فى الشهادة فالخبر وان فارق معناه معنى الشهادة فى بعض الوجوه فانهما يجتمعان فى معظم معانيها (راجع مقدمة صحيح الامام مسلم).

ومن هذين ـ الحث على السماع والإسماع والرواية عن العدول فقط ـ كان علم الاسناد واهتمت به الامة اهتماما منقطع النظير لادراكها انه اساس حفظ هذا الدين.

قال عبدالله بن المبارك «الاسناد من الدين ولولا الاسناد لقال من شاء ماشاء» وقال: بيننا وبين القوم القوائم» يعنى الاسناد (مقدمة مسلم).

وقال محمد بن سيرين : «ان هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم (مقدمة مسلم والكفاية ص ١٩٦).

وقال الضحاك بن مزاحم «ان هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذونه» (كفاية ص ١٩٦)

---

(٢٥) سورة الحجرات آية ٦

(٢٦) سورة الطلاق آية ٢

وقال طاووس: ان كان صاحبك مليا ـ اى يعتمد عليه بان يكون عدلا ضابطا ـ فخذ عنه» مقدمة مسلم.

وقال مالك: اتق الله وانظر ممن تأخذ هذا الشأن (كفاية ص ١٩٩).

وقال القاضى ابوبكر بن العربى المعافرى : والله اكرم هذه الأمة بالاسناد لم يعطه احدا غيرها فاحذروا ان تسلكوا مسلك اليهود والنصارى فتحدثوا بغير اسناد فتكونوا سالبين نعمة الله عن انفسكم مطرقين للتهمة اليكم وخافضين لمنزلتكم ومشتركين مع قوم لعنهم الله وغضب عليهم وراكبين لسنتهم».

واذا كان الاسلام قد بين عظم منزلة الاسناد وان الخبر لايقبل الا عن عدل فانه اجاز الكلام فى حال رجال الرواية بل اعتبر ذلك من النصيحة الواجبة وذلك لتسلم الشريعة من الدس والدخيل ولا يوجد سبيل لمن فى قلبه مرض فتكلم الرسول صلى الله عليه وسلم بما تتحقق به النصيحة فقال «ان عبدالله رجل صالح» وقال بئس اخو العشيرة .... الخ وكذلك تكلم الصحابة من بعده ولكن كان القول قليلا فان الصحابة جميعا معدلون بتعديل الله لهم كما تقدم ـ ولم يكن الجرح فى عهدهم الا بالنسيان والغفلة أو الخطأ وهذا فيهم قليل لشدة حرصهم وتحريهم (اما من وجد فى عصرهم وهو غير صحابى بان اسلم بعد موت الرسول سواء من العرب او الأمم الاخرى فلم يأخذوا عنه مارواه عن بعضهم اذ وجود الصحابة كاف فكيف يأخذون عمن أخذ عن الصحابى والصحابى موجود فلم يكن لحديث عهد بالاسلام دخل فى الرواية فى تلك الحقبة .

وما اخذه الصحابة من علماء اهل الكتاب لم يرفعوه (اى لم يضيفوه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم) وانما بينوا مصدره وذلك كاف فى الحفاظ على السنة .

ومن الذين تكلموا فى عهد الصحابة فى حال الرواة عبدالله بن عباس حبر هذه الأمة وفقيهها. وعبادة ابن الصامت وانس بن مالك والسيدة عائشة رضى الله عنهم.

اما فى عصر كبار التابعين فوجد من له اوهام واغلاط ووجد فيهم الضعفاء ممن كانوا

من دعاة المذاهب الخارجة والنحل الغالية ولم يوجد من يتعمد الكذب فتكلم العلماء فى الواحد بعد الواحد وممن تكلم فى هذا العصر جماعة كالشعبى وابن المسيب وابن سير ين.

اما فى عصر اوساط التابعين فى اوائل القرن الثانى الهجرى فوجد فيهم من الضعفاء من يقع منه رفع الموقوف ووقف المرفوع ورواية المرسل ومن يكثر خطؤه، كأبى هارون عمارة بن جوين العبدى .

اما فى عصر صغار التابعين فى حدود منتصف القرن الثانى فلقد جد فيهم الفرق السياسية والعناصر الفلسفية وازداد التعصب فظهر الكذب ولزم من ذلك ان يتكلم العلماء فى الرجال وان يتسع النظر فى الجرح والتعديل خصوصا وقد كثر بعد ذلك فى اتباع التابعين من يتعمد الكذب فى عصرهم فنظر شعبه ومالك ومعمر وهشام الدستوائى ثم ابن المبارك وهشيم وابن عيينه. ومن بعدهم يحيي بن سعيد القطان وعبدالرحمن بن مهدى. وأول من جمع كلامه فى ذلك يحيي بن سعيد ثم تلامذته مثل يحيى بن معين وعلى بن المدينى واحمد بن حنبل ثم تلامذتهم كالبخارى ومسلم وابى زرعة وابى حاتم ثم تلامذتهم كالترمذى والنسائى الى آخر عصر الرواية فى حدود الثلاثمائة .

وامتاز المتكلمون فى هذا الفن بميزة جعلت علم الجرح والتعديل محل اعجاب القاصى والدانى واصبح المؤرخ لاى فن والدارس لاى تاريخ يحاول ان يصل به إلى ماوصل اليه علم السنة المحمدية ولكن هيهات هيهات!!ان الامر دين والله قد تكفل بحفظه ووعد الله لابد ان يتحقق. تلك الميزة هى انهم كانوا ينقدون ويعدلون حسبة لله لا تأخذهم خشية أحد ولا تتملكهم عاطفة فليس احد من اهل الحديث يحابى فى الحديث اباه ولا اخاه ولا ولده. سئل زيد بن ابى انيسه عن اخيه فقال : لا تأخذوا عن أخى وسئل على بن المدينى عن ابيه فقال : سلوا عنه غيرى فأعادوا المسألة فأطرق ثم رفع رأسه فقال هو الدين انه ضعيف» وكان وكيع بن الجراح لكون والده كان على بيت المال يقرن معه آخر اذا روى عنه وقال ابو داود صاحب السنن ابنى عبدالله كذاب وقال الذهبى فى ولده ابى هريرة انه حفظ القرآن ثم تشاغل عنه حتى نسيه. راجع فتح المغيث ٣٢٢/٣ للسخاوى

ومقدمة صحيح مسلم والاعلان بالتوبيخ .

وكانت المظاهر لاتغريهم وكل مايهمهم ان يخلصوا العمل لله ويصلوا الى الحق الذى ترتاح عنده ضمائرهم لخدمة الشريعة ودفع مايشوبها وبيان الحق من الباطل.

قال يحيي بن معين «انا لنطعن على اقوام لعلهم قد حطوا رحالهم فى الجنة منذ اكثر من مائتى سنة «اى اناس صالحون ولكنهم ليسوا من أهل الحديث وكذا قال يوسف بن الحسين الرازى .

وقيل ليحيي بن سعيد القطان: اما تخشى ان يكون هؤلاء الذين تركت حديثهم خصماءك عند الله تعالى؟ قال: لان يكون هؤلاء خصمائى احب الى من ان يكون خصمى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لم حدثت عنى حديثا ترى انه كذب؟! [كفاية ص ٩٠] وورد عنه ايضا «لم لم تذب الكذب عن حديثى».

وهكذا صينت السنة وحفظت فلم يضع منها ماهو منها ولم يدخل فيها ماليس منها بل بقيت كما اوحاها الله سبحانه وتعالى الى نبيه بيانا للقرآن وهداية للبشرية الى الطريق القويم والصراط المستقيم أقوى من ان يؤثر فيها حقد اعداء الاسلام وأعلى من ان ينال منها قدمُ الزمن وتغاير الملوان وصدق الله العظيم اذ يقول «وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض»(٢٧).

والله الهادى الى الصراط المستقيم .

د / عبدالمهدى بن عبدالقادر بن عبدالهادى

الاستاذ المساعد بقسم الحديث

---

(٢٧) سورة الرعد آية ١٧ .

١ ـ الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع للقاضى عياض	ط السنة المحمدية ١٣٨٩ هـ / ١٩٧٠ م
٢ ـ الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ للحافظ السخاوى	ط الترقى ١٣٤٩ /
٣ ـ أعلام الموقعين من رب العالمين لابن قيم الجوزية	ط شركة الطباعة الفنية المتحدة ١٣٨٨/١٩٦٨
٤ ـ الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى	ط دار نهضة مصر
٥ ـ الاستيعاب فى معرفة الأصحاب لابن عبد البر	ط دار نهضة مصر
٦ ـ سنن الترمذى جامع الترمذى	ط السلفية بالمدينة المنورة ١٣٨٣/١٩٦٣
٧ ـ تحفة الأحوذى شرح جامع الترمذى للمباركفورى	ط السلفية بالمدينة المنورة ١٣٨٣/١٩٦٣
٨ ـ تقييد العلم للخطيب البغدادى	ط دمشق ١٩٤٩
١٠ ـ الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطى	ط الميمنة بمر ١٣١٤
١١ ـ سنن الدرامى	ط اليمانى ١٣٨٦/١٩٦٦
١٢ ـ السنن الكبرى للبيهقى	ط الهند ١٣٥٥
١٣ ـ سنن النسائى	ط مصطفى الحلبى ١٣٨٣/١٩٦٤
١٤ ـ سنن ابن ماجه	ط عيسى الحلبى
١٥ ـ صحيح مسلم بشرح النووى	ط الشعب (القاهرة)
١٦ ـ الطبقات الكبرى لابن سعد	ط دار صادر (بيروت)
١٧ ـ عون المعبود شرح سنن ابى داود للآبادى	ط السلفية بالمدينة المنورة ١٣٨٩/١٩٦٩
١٨ ـ الفتح الكبير فى ضم زيادة الجامع الصغير وهما للسيوطى مزجها الشيخ النبهانى	ط مصطفى الحلبى (القاهرة ١٣٥٠

١٩ ـ فتح المغيث للسخاوى	ط المكتبة السلفية بالمدينة المنورة
٢٠ ـ فتح المغيث للعراقى	ط الأزهر ١٩٣٧/١٣٥٥
٢١ ـ فتح البارى بشرح صحيح البخارى	ط السلفية بالقاهرة
٢٢ ـ صحيح البخارى مع شرحه السابق	ط السلفية بالقاهرة
٢٣ ـ الكفاية فى علم الرواية للخطيب البغدادى	ط دار الكتب الحديثه (القاهرة)
٢٥ ـ المقاصد الحسنة فى بيان كثير الأحاديث المشتهر للسخاوى	ط دار الأدب العربى القاهرة ١٩٥٦/١٣٧٥